ذاك ما يقول به الذين أجهدهم التفتيش، ولا صبر لهم على الثبات حتى النهاية. أولئك هم القانطون والمتشائمون والمستهترون والساخرون بكلّ من دأبه التفتيش وإيمانه بالفوز لا حدّ له. أمّا أنا فلست، والحمد لله، من القانطين ولا المتشائمين ولا المستهترين ولا الساخرين. وعندي أن الدافع الخفيّ الذي يدفعنا إلى التفتيش، هو الكفيل بوجود ما نفتّش عنه وبالقدرة الكامنة فينا على الوصول إليه.

فمثلما يفتّش الطفل عند ولادته عن ثدي أمّه مدفوعاً بغريزة تكفل له وجود ذلك الثدي، هكذا نفتّش نحن عن المعرفة مدفوعين بغريزة تكفل لنا وجود تلك المعرفة، وتكفل فوق ذلك قدرتنا على بلوغها. أليس أن الجوع إلى الخبز كفيل بوجود الخبز، وبوجود أجهزة تقوى على مضغ الخبز وهضمه وتحويله إلى دم ولحم وعضل؟ كذلك قل في الماء والعطش إلى الماء. وكذلك قل في المعرفة والشوق إلى المعرفة. إلّا أنّ الطريق إلى المعرفة لمن يشتاق المعرفة غير طريق الجائع إلى الرغيف والعطشان إلى الماء. وجهاز هضم المعرفة غير جهاز هضم الخبز والماء. فالمعرفة، متى بلغناها، كانت لنا غذاء أبديّاً يغنينا عن كلّ غذاء سواه. فلا غرو أن يستغرق التفتيش عنها أدهاراً لا أعماراً ولا أجيالاً. وهي لا تنفتح لجميع الناس دفعة واحدة، بل لأفراد بعد